

233374 - الحكمة من سؤال الله تعالى : لمن الملك اليوم؟

السؤال

يطلع الله تبارك وتعالى إلى الدنيا فيقول : (يا دنيا ؟ أين أنهارك ؟ أين أشجارك ؟ وأين عمارك ؟ أين الملوك وأبناء الملوك ؟ وأين الجبابرة وأبناء الجبابرة ؟ أين الذين أكلوا رزقي وتقلبوا في نعمتي وعبدوا غيري ؟ لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه أحد ، فيرد الله عز وجل فيقول : الملك لله الواحد القهار . وسؤالي هو : لماذا الرب يسأل الدنيا وهو أعلم ؟ ولماذا يسأل إذا لم تكن هناك إجابة من أحد ؟ مع أن كل شيء ينطقه لله يجب أن ينطق لماذا لم تنطق الدنيا بأنه لم يتبق أحد ؟ هذا السؤال يراودني بشدة ومنذ فترة طويلة أرجو الإجابة بإقناع .

ملخص الإجابة

والحاصل :

أنه لا إشكال في السؤال ، أيا ما كان تقدير السائل والمجيب ، والمراد بذلك :
التنبيه على عظمة الله جل جلاله ، وظهور تفرده بالملك والسلطان للخلائق ، ومثل هذه المقاصد : تعرفها العرب في لسانها ، وطرائق بيانها .
والله أعلم .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولا :

لم نقف على الحديث باللفظ المذكور في شيء من كتب السنة المسندة ، وإنما ذكره - بهذا اللفظ - ابن الجوزي في كتابه " بستان الواعظين " (22) ، من غير إسناد ، في سياق بعض مواضعه .
ومثل هذا الكتاب : لا تؤخذ منه رواية ، ولا يبنى على ألفاظه حكم .
وقد ورد المعنى المذكور ، (أي : هلاك الخلائق ، وموتهم جميعا ، حتى الملائكة عليهم السلام) ، مطولا جدا في حديث مشهور عند أهل العلم ، يعرف بحديث الصور .
وهذا الحديث قد رواه : إسحاق بن راهويه في "مسنده" رقم (10) ، (1/84) ، وأبو الشيخ في "العظمة" رقم (386 ، 387 ، 388) ، وغيرهما .

وهو حديث مضطرب ، ضعيف من عامة طرقه . وقد سبق ذكر الحديث ، وتخرجه ، وبيان من نص على ضعفه من أئمة الحديث في جواب السؤال رقم : (105309) ، فينظر للفائدة .
وينظر أيضا للفائدة :

<http://www.ahlalhdeth.com/vb/showthread.php?t=33245>

<http://www.al-afak.com/showthread.php?t=3082>

ثانيا :

هذا السياق الذي استشكله السائل : (سؤال الله عز وجل للخلائق ، بعد فنائهم) ، قد ثبت في الكتاب والسنة ، ما يشهد له في الجملة ، بغض النظر عن خصوص السياق الوارد في السؤال .
قال الله تعالى في كتابه الكريم : (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) غافر/15-17 .
وروى البخاري في صحيحه (4812) ، ومسلم (2787) أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ مُلُوكِ الْأَرْضِ ؟) .
قال ابن الجوزي رحمه الله :

" قوله تعالى: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) : اتفقوا على أن هذا يقوله الله عز وجل بعد فناء الخلائق.
واختلفوا في وقت قوله عز وجل له على قولين :
أحدهما: أنه يقوله عند فناء الخلائق إذا لم يبق مجيب. فیردّ هو على نفسه فيقول: لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، قاله الأكثرون.
والثاني: أنه يقوله يوم القيامة.
وفيمن يجيبه حينئذ قولان: أحدهما: أنه يجيب نفسه ، وقد سكت الخلائق لقوله تعالى . قاله عطاء.
والثاني: أن الخلائق كلهم يجيبونه فيقولون: **لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ، قاله ابن جريج .
انتهى من "زاد المسير" (7/212) .
وينظر : "تفسير البغوي" (7/143-144) ، "السراج المنير" للخطيب الشربيني (3/475) .
"محاسن التأويل" للقاسمي (8/305) .

ثالثا :

ليس في مثل هذا السؤال إشكال ، سواء كان من رب العالمين ، وهو علام الغيوب ، أو كان من غيره ، كما قد قيل ، وبيان ذلك من وجوه :

الأول :

أنه قد قيل إن هذا السؤال وجوابه ، إنما يكون بعد بعث الخلائق وحشرهم إلى رب العالمين ، وأن الخلق كلهم يجيبونه ، كما سبق نقله عن ابن جريج ، وحينئذ ، فلا إشكال .

وقد روي هذا القول عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : "يَجْمَعُ اللَّهُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ بَارِضٍ بَيَضَاءٍ، كَأَنَّهَا سَبِيكَةٌ فِضَّةٌ لَمْ يُعْصَ اللَّهُ فِيهَا قَطُّ ، فَأَوَّلُ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَنْ يُنَادِيَ مُنَادٍ: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ فَيَجِيبُوا كُلُّهُمْ: لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ " . نقله أبو حيان في "البحر المحيط" (9/245) ، وينحوه عن ابن عطية في "المحرر الوجيز" (4/551) ، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور" (7/280) إلى عبد بن حميد في "تفسيره" .

وحينئذ ، فالسؤال والجواب على ظاهره ، وقد أجاب الخلائق ربهم عن سؤاله .

الثاني :

أنه إذا قُدِّرَ أن الجواب ليس من الخلائق ، وإنما السائل ، والمجيب : هو رب العالمين ، كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : " إِذَا هَلَكَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اللَّهُ قَالَ: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، فَلَا يُجِيبُهُ أَحَدٌ ، فَيَرُدُّ عَلَى نَفْسِهِ: لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . "

انظر : "البحر المحيط" ، الموضع السابق .

فليس في ذلك إشكال أيضا ؛ فإن مقاصد السؤال البلاغية : أوسع بكثير من مجرد الاستفهام عن أمر لم يكن معلوما للسائل ؛ كما في الصحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَجِئْتُمْ عُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ ، ثُمَّ يَرْجِعُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ : كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ، وَآتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ) .

فليس القصد من السؤال هنا : الاستعلام عن حال العباد ، كما هو مقرر معلوم ، وكما في الحديث نفسه (وهو أعلم بهم) ، وإنما الحكمة من ذلك : بيان شرف هؤلاء العباد ، والتنويه بعظيم شأنهم ، والإشادة بفضلهم عند الملائكة .

ومن مقاصد السؤال ، ما قد يكون عكس ذلك ، والسائل يعلم - يقينا - أن المسؤول لا يجيبه .

كما في صحيح مسلم (2873) من حديث عمر رضي الله عنه : " إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ ، بِالْأَمْسِ ، يَقُولُ: (هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ) ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَبُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ: فَجْعَلُوا فِي بئرِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَاَنْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ: (يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ وَيَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَقًّا ؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي اللَّهُ حَقًّا) ، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَكَلَّمَ أَجْسَادًا لَا أَرْوَاحَ فِيهَا ؟

قَالَ: (مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شَيْئًا) .

وفي صحيح البخاري (3976) قَالَ قَتَادَةُ : " أَحْيَاهُمُ اللَّهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ ، قَوْلُهُ ، تَوَيْخًا ، وَتَصْغِيرًا ، وَنَقِيمَةً ، وَحَسْرَةً ، وَنَدَمًا " . فقد بين قتادة رحمه الله مقاصد مثل هذا السؤال ، وإسماع هذا الكلام للكفار ، وليس في شيء منها أنه طلب خبرهم حقيقة ، ولا أنه أراد منهم أن يخبروه بشيء كان يجهله ، صلى الله عليه وسلم .

وهذا أمر شائع في لسان العرب ، دائر في أشعارهم ، أن يسأل الشاعر الأطلال ، ومنازل الأحباب ، أو يحدث ناقته وجمله ، أو يأتي القبور فيناديها ويسألها ، أو نحو ذلك ، مما هو شائع معروف ، لا ينكره من له أدنى معرفة بلسان العرب وأشعارها .

وحينئذ ، يقال هنا :

ليس في شيء من ظاهر الكلام ، ولا فحواه أن الله جل جلاله أراد أن ينطق الخلائق بجواب سؤاله ، ولا أنه طلب منهم أن ينطقوا بشيء من ذلك أصلاً ؛ وإنما هذا مقام إظهار كبريائه وعظمته ، وأن من كان ينازعه الملك في الدنيا ، بقوله ودعاواه وأكاذيبه ، لا يملك - في ذلك اليوم العسير - شيئاً من أمره ، ولو بمجرد القول والدعوى باللسان ، ولا يقوى أن يتقدم بين يدي رب العالمين بقول ، ولا فعل .

قال الشيخ العلامة الطاهر ابن عاشور ، رحمه الله :

" وَالْإِسْتِفْهَامُ : إمَّا تَقْرِيرِيٌّ ، لِيَشْهَدَ الطُّغَاةُ مِنْ أَهْلِ الْمُحْشَرِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُخْطِئِينَ فِيمَا يَزْعُمُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ مُلْكٍ لِأَصْنَانِهِمْ ، حِينَ يُضَيَّفُونَ إِلَيْهَا التَّصَرُّفَ فِي مَمَالِكٍ مِنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، مِثْلَ قَوْلِ الْيُونَانِ بِإِلَهِ الْبَحْرِ وَإِلَهِ الْحَرْبِ وَإِلَهِ الْحِكْمَةِ ، وَقَوْلِ أَقْبَاطٍ مِصْرَ بِإِلَهِ الشَّمْسِ وَإِلَهِ الْمَوْتِ وَإِلَهِ الْحِكْمَةِ ، وَقَوْلِ الْعَرَبِ بِاخْتِصَاصِ بَعْضِ الْأَصْنَانِ بِبَعْضِ الْقَبَائِلِ مِثْلَ اللَّاتِ لِثَقِيفٍ ، وَذِي الْخَلَصَةِ لِدَوْسٍ ، وَمَنَاةَ لِلْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ .

وَكَذَلِكَ مَا يَزْعُمُونَهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ عَلَى النَّاسِ لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ كَقَوْلِ فِرْعَوْنَ : (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) [الْقَصَصُ : 38] وَقَوْلِهِ : (أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي) [الزخرف : 51] ، وَتَلْقِيبِ أَكَّاسِرَةِ الْفُرْسِ أَنْفُسَهُمْ بِلِقَبِ : مَلِكِ الْمُلُوكِ (شَاهِنْشَاهُ) ، وَتَلْقِيبِ مُلُوكِ الْهِنْدِ أَنْفُسَهُمْ بِلِقَبِ مَلِكِ الدُّنْيَا (شَاهِ جِهَانِ) .

وَيُفَسِّرُ هَذَا الْمَعْنَى مَا فِي الْحَدِيثِ فِي صِفَةِ يَوْمِ الْحَشْرِ : (ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ ؟) ؛ اسْتِفْهَامًا مُرَادًا مِنْهُ : تَخْوِيفُهُمْ مِنَ الظُّهُورِ يَوْمَئِذٍ ، أَيْ : أَيْنَ هُمْ الْيَوْمَ ؟ لِمَاذَا لَمْ يَظْهَرُوا بِعَظَمَتِهِمْ وَخِيَالَتِهِمْ ؟

وَبَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الْإِسْتِفْهَامُ كِنَايَةً عَنِ التَّشْوِيقِ إِلَى مَا يَرِدُ بَعْدَهُ مِنَ الْجَوَابِ ، لِأَنَّ الشَّأْنَ أَنَّ الَّذِي يَسْمَعُ اسْتِفْهَامًا يَتَرَقَّبُ جَوَابَهُ ، فَيَتِمَكَّنُ مِنْ نَفْسِهِ الْجَوَابُ عِنْدَ سَمَاعِهِ فَضَّلَ تَمَكُّنٌ ...

وَجُمْلَةٌ : (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) : يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مِنْ بَقِيَّةِ الْقَوْلِ الْمُقَدَّرِ ، الصَّادِرِ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ تَعَالَى ، بِأَنْ يَصْدُرَ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ اسْتِفْهَامٌ ، وَيَصْدُرَ مِنْهُ جَوَابُهُ .

لأنه لما كان الاستفهام مستعملاً في التقرير ، أو التشويق : كان من الشأن أن يتولَّى الناطق به الجواب عنه ، ونظيره قوله تعالى : (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ) [النَّبَأُ : 1 ، 2] .

وَبَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَقُولَ قَوْلٍ آخَرَ مَحْذُوفٍ ، أَيْ فَيَقُولُ الْمَسْئُولُونَ : لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ إِقْرَارًا مِنْهُمْ بِذَلِكَ ، وَالتَّعْدِيرُ : فَيَقُولُ الْبَارِزُونَ : لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، فَتَكُونُ مُعْتَرِضَةً .

وَذَكَرُ الصِّفَتَيْنِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنَ الصِّفَاتِ الْعُلَى لِأَنَّ لِمَعْنِيَّتَيْهِمَا مَزِيدَ مُنَاسَبَةٍ بِقَوْلِهِ : (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) ، حَيْثُ شُوهِدَتْ دَلَائِلُ الْوَحْدَانِيَّةِ لِلَّهِ ، وَقَهَرَهُ جَمِيعُ الطُّغَاةِ وَالْجَبَّارِينَ " .

انتهى من "التحرير والتنوير" (110/24-111) .